

قراءة في
ثورة الأمام الحسين عليه السلام

A Reading in
Imam Al-Hussein
(Peace be upon him)
Revolution

أ.م.د. علي عودة محمد
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب / قسم علم النفس

Asst. Prof..Dr. Ali Oda Mohammed
University of Al-Mustansirya
College of Arts
Department of Psychology



..... ملخص البحث ...

ان دراسة ثورة عاشوراء واسقاطها على السياسية المعاصرة يتخذ احد اتجاهين، فالسياسة المعاصرة تعيش ازمة حقيقية بين التنظير والتبني الفكري من جانب، والممارسة العملية ومدى انسجامها مع التنظير من جانب اخر.

ان عاشوراء ثورة مبادئ، وهي بهذا المستوى من القيم لا يمكن ان تقارن بفلسفة قائمة على الفكر الميكافيل في سياستها الخارجية، وتعيش تناقضا فضيحا بين المتبنيات الفكرية والممارسة العملية التي غالبا ما تكون بعيدة عن المثل التي تبشر بها. ولعل من اهم عناصر الاختلاف بين عاشوراء والسياسة المعاصرة، هي ان عاشوراء تنطلق من عقيدة تعتبر الحياة الدنيا محطة قصيرة يمكث فيها الانسان ويعيش في ضوء تعاليم السماء، وان هناك حياة اخرى تتشكل معالمها وطبيعتها تبعاً للقيم والاخلاقيات التي يتمثل بها في الحياة الدنيا. اما السياسة الغربية فهي تنطلق من اقصاء الدين عن كل شيء فهو في نظرها مجرد علاقة بين الفرد وخالقه ولا يشكل بالضرورة اساسا للمفاهيم العامة لادارة الدولة.

وهذه المسالة جوهرية تؤثر في مجمل الافكار التي يتناولها هذا البحث في المقارنة بين عاشوراء والسياسة المعاصرة. ففيما تعلق بموضوع حقوق الانسان فمع ان هذا الموضوع يمثل العنصر الاساس الذي تقوم عليه فلسفة الحكم في اوربا وبالشكل الذي يضمن حرية الفرد والمجتمع والحد من سلطة الحاكم، الا اننا نجد التناقضات الفاضحة التي تقدمها السياسة المعاصرة في تمييزها وازدواجيتها في مسالة حقوق

الانسان التي باتت واضحة مع تنامي وسائل الاعلام وانتشارها، فهنا حقوق الانسان اساسية ويجب تطبيقها، لان تطبيقها لا يتنافى مع مصالحها، وهناك حقوق تهان والانسان تنتهك حرمانه وتسلب حريته فلا تستطيع عيونهم اكتشاف ذلك، بل اصبح الامر ان يقفوا مع منتهكي الحقوق ومحاربة المظلوم وفي المقابل تجد الامام الحسين عليه السلام يؤدي النصيحة ويعظ الجند في المعسكر المعادي حتى اخر لحظات حياته، بل وصل به الامر ان يتسم في وجه قاتليه لانه يحمل رسالة تستهدف هذا الانسان فحقوق الانسان عند عاشوراء تاتي بربط الانسان من خلال العبودية لله سبحانه وتعالى فيكون بذلك حرا من كل قيد مالكا لانسانيته وكرامته، بينما يسعى الفكر الغربي الى تحرير الإنسان من كل القيود فتكون ذاته هي المقدسة فينتهي بالعبودية لأمر حياتية تسلب منه إنسانيته.

اما ما تعلق بموضوع الأخلاق فمن الفوارق المهمة بين عاشوراء والسياسة المعاصرة هو الثابت والمتغير فيما يخص الاخلاق والقيم، ففي حين ان الأخلاق والقيم تكون ثابتة في الفكر الاسلامي مع وجود مساحة ضيقة تعمل فيها تفاصيل الطرف الموضوعي ليتحرك الحكم الشرعي بما يتناسب مع ذلك الطرف، فان مساحة المتغير في الفكر الغربي والسياسة المعاصرة يتسع كثيرا لتحركه المصلحة حيناً والبراغماتية حيناً آخر، وذوق المجتمع في كثير من الاحيان. في حين يقاس عمل الانسان في نظر عاشوراء والدين الاسلامي بمدى نزاهة الدوافع التي تحرك الانسان نحو الفعل والعطاء بغض النظر عن النتائج وحجم ذلك العطاء، يبقى الغرب اسيرا للنتاجية التي توفر المال الاكبر بعيدا عن أي قيمة حركت الانسان لتحقيق تلك الانتاجية.

...Abstract...

The current study does not target the scientific erection to the revolutionary Islamic discourse, but it attempts to contribute in the research crystallization of the revolutionary plough of Imam Al-Hussein (Peace be upon him and his progeny) as it dissects the dynamic vantage points whose backgrounds are intellectual ,political, social and ethical. Thereby, it is to draw a comparison between `Ashura and the contemporary policy in the light of two pivotal issues: human rights and the ethical concept. Scrutinizing `Ashura revolution and bringing it into the contemporary policy take one of these two isles, the contemporary policy falls in a dilemma between theorization and intellectual adaptation on the one hand and practicing the process and acquainting with the theorization on the other hand.

... المقدمة ...

لا يهدف البحث الحالي الى التأسيس العلمي للخطاب الإسلامي الثوري، بل هو محاولة للمساهمة في البلورة البحثية للمنهج الثوري للإمام الحسين عليه السلام من خلال اكتشاف الجوانب الحركية وخلفياتها الفكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية، وذلك من خلال عقد مقارنة بين عاشوراء والسياسة المعاصرة في محورين أساسيين هما حقوق الإنسان والبعد الأخلاقي.

وقبل عقد هذه المقارنة لابد لنا من ان نبين معنى الثورة وفي هذا الصدد يمكن القول بان الثورة ماهي الا الخروج على نظام الحكم القائم في بلد معين تشارك فيه قطاعات واسعة من أبناء الشعب تبني فلسفة واضحة المعالم وتسير وفق خط مبدئي يتبناه القائمون على الثورة وتهدف الثورة الى تحقيق أهداف ومكاسب مادية ومعنوية من شأنها ان تحدث تغيرا أساسيا في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المجتمع.

ويحتاج حدوث الثورة الى انتشار الوعي بين الجماهير ووجود الإرادة السياسية لديها الى التغيير، وتوفر القيادة التي تمتلك الشجاعة والاستعداد الى التضحية.

ولا تكون الثورة صحيحة ومقبولة الا عندما تكون موجهة ضد نظام منحرف عقائديا ومستبد من اجل اقامة الحق وتحقيق التقدم والعدالة والمساواة بين أفراد المجتمع كافة وعدم التمييز بينهم على اساس المذهب او الدين او الجنس وغير ذلك.

وقد تحدث الثورة بصورة فجائية او تدريجية، عنيفة أو سلمية وينتج عنها سقوط الدستور ونظام الحكم، ولكنها لا تمس شخصية الدولة والتزاماتها الدولية، فالثورة ليست ممارسة عنيفة ضد الاوضاع دون الاخذ بعين الاعتبار ظروف الساحة وكافة ابعادها في الحاضر والمستقبل انما تعني التركيز على الهدف، وتنظر الى القوة والتسامح بوصفهما أسلوبين طبيعيين لكل واحد منهما مكانه وشروطه التي ينبغي التأكد من ملاءمتها قبل الممارسة، فلا تنازل عن موقف يحتاجه الهدف ولا ضعف عن المواجهة التي يفرضها التحدي، ولا استخدام للقوة دون سبب.

وللثورة اسبابها المقبولة لدى القائمين عليها منها: الانحراف الإيديولوجي للنظام عن عقيدة الشعب والفساد الاداري والمالي في الدولة وتفشي الظلم والحرمان والمشكلات الاجتماعية المزمنة والتفاوت الطبقي الفاحش بين ابناء الشعب، والتمييز الديني بين ابناء الشعب الواحد، وتعد الثورة الانكليزية عام ١٦٨٨ والامريكية عام ١٧٧٦ والفرنسية عام ١٧٨٩ والروسية عام ١٩١٧ والصينية عام ١٩٤٩ والثورة الاسلامية الايرانية عام ١٩٧٩ من اشهر الثورات في التاريخ الحديث والمعاصر.

اما دراسة ثورة عاشوراء واسقاطها على السياسة المعاصرة يتخذ احد اتجاهين، فالسياسية المعاصرة تعيش ازمة حقيقة بين التنظير والتبني الفكري من جانب والممارسة العملية ومدى انسجامها مع التنظير من جانب اخر.

عاشوراء ثورة مبادئ قادها عظيم من عظماء هذه الامة حمل روحه على كفه فداء لدينه وعزة امته. وثورة بهذا المستوى من القيم لا يمكن ان تقارن بفلسفة قائمة على الفكر الميكافيلي في سياستها الخارجية وتعيش تناقضا فضيعا بين المتبنيات الفكرية والممارسة العملية التي غالبا ما تكون بعيدة عن المثل التي تبشر بها.



عاشوراء وحقوق الانسان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الاسراء: ٧٠).

وعن ابي حمزة الثمالي عن ابي جعفر الباقر عليه السلام قال: «لما حضرت علي بن الحسين الوفاة ضممني الى صدره، ثم قال، يا بني اوصيك بما اوصاني به ابي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصر الا الله» (راجع وسائل الشيعة ج ١٦، ص ٤٨).

ان مسألة حقوق الانسان تمثل العنصر الاساس الذي تقوم عليه فلسفة الحكم في اوربا، وهي تركز على ضرورة الحد من سلطة الحاكم، وعدم اساءة استخدامها (مفتي والوكيل، ١٩٩٠) وضمان حرية الفرد والمجتمع، وقد تمكنت اوربا من صياغة عهد يعطي للانسان كرامة بعد عناء طويل تعرضت فيه امم الى الظلم والبشاعة والممارسة الدونية.

بدأت فكرة حقوق الانسان على يد جون لوك في القرن السابع عشر في نظريته مدرسة الحق الطبيعي (مفتي والوكيل، ١٩٩٠)، الا ان فهم تعدد المنظرين، ولا يهمننا كثيرا هذا الامر في هذا البحث سواء انتهى التنظير إلى حقوق الإنسان بالصياغة والشكل الذي نعرفه اليوم، والذي يعتمد على مفهوم الدولة التي تؤسس لحماية الفرد والدفاع عن حقوقه، وصون كرامته وانسانيته. ولحقوق الانسان في مسيرة عاشوراء مكانة كبيرة، بل تعدت الممارسة العملية لقائد المسيرة لتشمل الحيوان ايضا، ومثال ذلك موقف الحسين عليه السلام مع الحر حين سقى الخيل والرجال بالماء.

ومع ان مصطلح حقوق الانسان لا يبرز في عاشوراء كما هو عليه من استخدام في عصرنا الحديث، الا ان مضامين النصوص الواردة على لسان الامام الحسين عليه السلام تؤكد وتعزز المفاهيم نفسها التي تتبناها السياسة المعاصرة، بل تزيد عليها في بعدها العملي، والدوافع التي تنبع من حب حقيقي يحمله الحسين عليه السلام حتى للذين حاربوه. ولا بد من الاشارة هنا الى ان الامام الحسين عليه السلام قد تربى على يد امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، وهو صاحب الوثيقة الخالدة (عهده لملك الاشر) التي تعد من المصادر النادرة والشاملة التي وصفت ما يجب ان يكون عليه أي عهد لحقوق الانسان. وحيث ان نور الامامة يستمر في عطائه، فقد مثلت عاشوراء سعيًا صادقًا في تطبيق المعنى الوارد لحقوق الانسان، والذي يدعو الى الحد من سلطة الحاكم والدفاع عن الحرية وكرامة الفرد والمجتمع، وقد كان هذا واضحا في خطاب الامام الحسين عليه السلام: «يزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله (الياسري، ٢٠٠٩). فساد يزيد وخروجه على القيم السماوية، وظلمه للإنسان الذي كرمه الله (قاتل النفس المحترمة)، يعني انه تهادى في سلطته الى ابعد ما يكون، وهذا التهادي يكون على حساب بقية المجتمع الذي امتهنت كرامته، ولا بد من حركة جادة لإيقافه.

وفي خطابه في أثناء طريقه إلى كربلاء قال عليه السلام: ايها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى منكم سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله ان يدخله مدخله (الجوزي، ١٩٨٧). وهنا يجعل مقارعة الظالم المنتهك لحقوق الانسان مسؤولية الجميع، معتمدا في ذلك على قوة الخطاب بتضمينه قول

الرسول ﷺ ليكون محل تقدير واحترام وقبول الآخرين، والقاء الحجة عليهم. الحب الذي رافق روح الحسين ﷺ كان حبا صادقا، لذلك لم يقاتل بدافع الحقد بل كان يبكي لاجل القوم، وبذلك جسد اخلاق رسول الله ﷺ حيث كانت حركته تستنهض بقايا الضمير في داخلهم. وفي خطابه لمعسكر يزيد قال: ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى اعظكم بما هو حق على (الياسري، ٢٠٠٩)، فالخطاب هنا دقيق صريح في ان الارشاد والنصح حق لهؤلاء، فلا بد من تقديمه لهم.

ان التناقضات الفاضحة التي تقدمها السياسة المعاصرة في تمييزها وازدواجيتها في مسألة حقوق الانسان باتت واضحة في ظل تنامي وسائل الاعلام وانتشارها فهنا حقوق الانسان ضرورية ويجب تطبيقها لان تطبيقها لا يتنافى مع مصالحهم وهناك حقوق تهم، والانسان تنتهك حرمانه وتسلب حريته فلا تستطيع عيونهم اكتشاف ذلك بل اصبح الامر ان يقفوا مع منتهكي الحقوق ومحاربة المظلوم. وفي المقابل، تجدد الامام الحسين ﷺ يؤدي النصيحة، ويعظ الجند في المعسكر المعادي حتى اخر لحظات حياته، بل وصل به الامر ان يتسم في وجه قاتليه، لانه يحمل رسالة تستهدف هذا الانسان. فحقوق الانسان عند عاشوراء تأتي بربط الانسان من خلال العبودية لله سبحانه وتعالى، فيكون بذلك حرا من كل قيد، مالكا لإنسانيته وكرامته (مفتي والوكيل، ١٩٩٢) في حين يسعى الفكر الغربي الى تحرير الانسان من كل القيود فتكون ذاته هي المقدسة، فينتهي بالعبودية لأمر حياتية تسلب منه إنسانيته.

البعد الأخلاقي

أ. عاشوراء واولوية القيم الاجتماعية

الانسان، الا انها تجاهلت اهمية بناء الفرد بناء صالحا ليكون الدافع لتطبيق ذلك النظام والمحامي عنه. والحقيقة ان الدين الذي منه ومن اجله انطلقت ثورة عاشوراء يرى ان القيم والاخلاق هي الاساس الذي يجب أن يحكم الحياة (القبانجي، ١٩٨٩).

ب. الانحدار الاخلاقي عند الغرب

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد: ٤٧).

من الفوارق المهمة بين عاشوراء والسياسة المعاصرة هو الثابت والمتغير فيما يخص الاخلاق والقيم، في حين ان الاخلاق والقيم تكون ثابتة في الفكر الاسلامي مع وجود مساحة ضيقة تعمل فيها تفاصيل الظرف الموضوعي ليتحرك الحكم الشرعي بما يتناسب مع ذلك الظرف، فان مساحة المتغير في الفكر الغربي والسياسية المعاصرة يتسع كثيرا لتحركه المصلحة حيناً والبراغماتية حيناً اخر، وذوق المجتمع في كثير من الاحيان. فنظرية نسبية الاخلاق تجعل الحرية الفردية محركاً اساسياً في سلوك الفرد، ومدى انضباطه في قوالب اخلاقية، طالما هو لم يتعد دائرة الحرية الفردية، ويدخل في مساحات الاخرين الخاصة، فهو حر فيما يريد ان يمارس من رذائل وموبقات النفعية التي تسير حياة الروماني هي نفسها التي تتجه بحياة الغربي وتغريه بما يندفع اليه من اعمال، والنظرة على ان الحياة غاية لا يجوز التعدي عنها هي الفكرة التي تتحكم في العقلية الحديثة بصورة عامة (شمس الدين، ١٩٩٠).

وانكار الايمان باليوم الاخر راجع الى انكار الغرب للقضايا الغيبية التي يتناولها الحس والتجربة، ولاشك ان هذه النزعة المادية الصرفة كان لها تأثير سيء في حياة

الإنسان اذ جعلته لا يهتم الا بخصوص مصالحه الشخصية ومنافعه الخاصة (الغريفي، ٢٠١٠). في حين يقاس عمل الانسان في نظر عاشوراء على نحو خاص ونظر الدين الإسلامي على نحو عام بمدى نزاهة الدوافع التي تحرك الانسان نحو الفعل والعطاء بغض النظر عن النتائج وحجم ذلك العطاء، يبقى الغرب اسيرا للنتاجية التي توفر المال الأكبر، والرشاء الاشمل بعيدا عن أي قيمة حركت الإنسان لتحقيق تلك الإنتاجية. فعاشوراء يحركها رضا الله والاعتقاد بان هذه الدنيا مزرعة للاخرة اما الغرب فانه يحصر تفكيره في الدنيا وملذاتها لان الحياة تنتهي عند الموت.

ج. الغرب بين الادعاء والمصادقية

مع تصاعد الثورة الصناعية وتسمم الغرب ناصية العلم، فقد اصابه تراجع على مستوى القيم والمبادئ، فتنامت لديه النزعات العنصرية، وصنف الشعوب الاخرى بالتخلف العرقي واعطاها القابا دونية كالعالم الثالث، والدول النامية، وبرر لنفسه فرض انساقه الثقافية والسعي لفرض سيطرته على مقدرات العالم واستغلال ثرواته اصدق مثال على المستوى الفكري التنظيري، الذي تحول فيما بعد الى مكون اساس في استراتيجية الغرب وبالذات امريكا في التعامل مع الاخر نظرية نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما، ونظرية صدام الحضارات لسامويل هنتنغتون. فالاولى صنفت الليبرالية على انها قمة ما قد يصل اليه الانسان على المستوى الايديولوجي والثانية بررت تحرك الاساطيل لاختضاع الاخرين وتمكين الغرب.

ويعد كتاب فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ والانسان الاخير) والذي جاء بعد مقالته الشهيرة (نهاية التاريخ) بثلاث سنوات تقريبا، يعد مرجعا اساسيا لسياسة امريكا التي تمثل المحرك الاكبر للسياسة المعاصرة احادية القطب خلال العشرين

سنة الماضية، وقد اسس فوكوياما نظريته من خلال قراءته لنظريات فلاسفة مثل: هيغل واستاذة الين بوم، ومن خلال قراءته للانهيارات المتتالية للدول التي كانت تحت مظلة الاتحاد السوفيتي في العقد قبل الاخير من القرن الماضي. ولعل سيادة المذهب التجريبي في المعرفة في اوربا وامريكا واثره على الراء الفلسفية - كان عاملا ايضا- عمل على تشكيل رؤى فوكوياما ليتبنى نظريته التي تجزم بوصول الانسان الى منتهى ما يمكن ان يصل اليه في صياغة النظام الاجتماعي الذي يوصل الانسان الى السعادة. ورغم الادعاء بحاكمية قيم الديمقراطية في الدول الغربية، غير ان هذه الديمقراطية تحمل تحفظا حين يحمل أي تحرك رؤية منافية لقيم الديمقراطية، ويستهدف كيانها (القبانجي، ١٩٨٩) ففي مثل هذا الفرض تتراجع قيم حرية الاتصال والتعبير والتنظيم. وعلى ضوء ما تقدم نقول: ان السياسة المعاصرة تحمل مكايل متعددة في تعاملها مع الاخر وهي تعتمد المصلحة اولا واخيرا فالاثبات في المواقف والقيم ولا ديمومة للعلاقات الا على اساس من النفع المرتقب، والامن القومي الذي لايعطي اعتبارا للانسان خارج حدود الوطن والتحالفات الاقليمية بعكس عاشوراء التي دأب قائدها على ترسيخ قيمة الانسان والذود عنه ومحاربة السلطة التي خرجت عن حدودها لتسلب الامن، وتصادر الراي، وتنتهك الحق.

ومما تقدم يمكن استنتاج الاتي:

مع التطور المتواصل في تنقيح مبادئ حقوق الانسان، وارساء العدالة الاجتماعية في فكر الدول الغربية، الا ان المسافة بين هذه المبادئ النظرية وحقيقة الممارسة تزداد اتساعا وتتمظهر حالة التناقض هذه في المواقف تجاه حقوق الانسان وحركات التحرر من العبودية التي تظهر في ما يسمى بالعالم الثالث.

تميزت السياسة المعاصرة بازدواجية مفرطة في تعاملها مع قضايا العالم، حتى باتت تعمل بوجه مكشوف دون خجل او وجل وتسوق المبررات لفعالها في وسائل الاعلام الضخمة التي تسيطر عليها. ما يحرك السياسية المعاصرة هو المصلحة والمبدأ الميكافيلي بعيدا عن اهمية العدالة وقدسيتها فهي تشكل وتتغير في تعاملها مع الشعوب الاخرى بحسب المصلحة.

ثورة عاشوراء قامت على مبادئ ثابتة تمثلت في عقيدة القائد والاتباع. واصبح السلوك مصداقا لتلك القيم والمبادئ، ولذا فانها توفر حلا لاكلما تجدد الزمان او تغير المكان. عاشوراء تبنت خطابا تميز بالمصداقية والنزاهة واعتمد استراتيجيات لاتقل شأننا عن ما يتم توظيفه في اكبر المؤسسات الاعلامية والاستراتيجيات المعاصرة.

شتان بين الفكر السياسي النظري والممارسة العملية، وتعد ثورة الامام الحسين عليه السلام من الظواهر النادرة التي يتجانس فيها المبدأ مع الممارسة في أروع صورة.



المصادر والمراجع

- (٤) القبانجي، صدر الدين: ١٩٨٩، علم السياسة تجديد من وجهة نظر إسلامية.
- (٥) مفتي، محمد احمد والوكيل، سامي صالح: ١٩٩٠، حقوق الإنسان في الفكر السياسي الغربي والشرع الاسلامي.
- (٦) الياسري، عبد الكاظم محسن: ٢٠٠٩، الخطاب الحسيني في معركة الطف
- القران الكريم.
- (١) الجوزي: ١٩٨٧، الكامل في التاريخ، ج٤.
- (٢) شمس الدين، محمد مهدي: ١٩٩٠، نظام الحكم والإدارة في الإسلام.
- (٣) الغريفي عبدالله: ٢٠١٠، الحسين يلبي النداء.



